الأهرام

المصدر : الحياة
التاريخ : ٣ اكتوبر ١٩٩٩

حرب الشيشان

٢: لماذا تندفع روسيا هكذا؟

ما أن يتعلق الأمر بحدث روسي، حتى يصبح حديث المؤامرة مستبداً بالأذهان، طاغياً على كل تناول، تجده على ألسنة وأقلام حتى أولئك الذين كثيراً ما استهجنوا ذلك النهج في مقاربة الأمور. قد يكون ذلك عائداً الى ان ما يجري في روسيا غالباً ما يكون مستغلقاً على كل فهم، تختفي وراءه استراتيجيات ملغزة غير بينة المرامي.

وهذا قد يجعل من تلك السمة بعضاً من اوجه التواصل والاستمرارية مع ماض شيوعي سوفياتي راسخ مكين في ذلك الصدد، لعل من بين ما يرمز اليه ميل بوريس يلتسن الى اختيار رؤساء حكوماته المتعاقبة من أوساط الاستخبارات (ذلك، على الأقل، شأن آخر ثلاثة منهم). أو ربما عاد ذلك الى الفساد المستشري استشراء سرطانياً في صفوف الطبقة السياسية الروسية، خصوصاً تلك المسيطرة على مقاليد الأمور من بطانة الرئيس يلتسن، ممن يتبع أفرادها استراتيجيات شخصية الى أبعد الحدود، قوامها الإثراء أو إحكام سلطتها (والأمران متلازمان). فإذا كل حديث كبير عن التنمية وانجاز الانتقال نحو الديموقراطية وما الى ذلك من جليل الأهداف، يتستر في واقع الحال على مطامح فئوية أو فردية ضيقة. وهذا أشاع سلوكاً سينيكياً ما لبثت عدواه ان انتقلت الى المحللين والمعلقين، ممن باتوا يقبلون على كل شأن روسي يجد وفي الذهن سؤال رئيسي «من الطرف المستفيد من ذلك؟».

والحالة الروسية قد تكون في ذلك الصدد نموذجية، ومن هنا أهمية التوقف عند هذه الجوانب، على نصاب استبدادي كان قائماً حتى باغتته نهاية الحرب الباردة ووضعته امام تحديات التأقلم مع واقع جديد، يجهد في الأخذ به، وهو المحمل بتراث في التعاطي مع الشأن العام معلوم. وذلك ما نجد عليه أمثلة، وما نعثر على أصداء عديدة له لدى أكثر من نظام من أنظمة منطقتنا.

والحرب الجارية حالياً في جمهورية الشيشان (بعد ان انطلقت قبل اسابيع من داغستان المجاورة)، لا يشذ الخوض فيها عن ذلك التناول التآمري. فكثرت في شأنها التساؤلات والاجتهادات التي من تلك الطبيعة. فقد استراب البعض في ان تبادر حفنة من المقاتلين الاسلاميين الوافدين من الشيشان الى شن حرب انفصالية على روسيا في داغستان، كما استراب ذلك البعض في توقيت ذلك. فقال قائل ان عقدة ذلك النزاع المستجد ورهانه انما يتمثلان في نفط بحر قزوين وفي خطوط امداداته نحو المتوسط ومن أين يجب ان تمر. وفي كل ذلك ما هو قمين باستثارة أشرس المطامع لدى عديد القوى من بلدان المنطقة ومن خارجها. وقد وجد كذلك من ربط بين نشوب المواجهات في داغستان، ثم تحولها الى حرب بأتم معنى الكلمة تستهدف الشيشان وبين اقتراب موعد الانتخابات الاشتراعية ثم الرئاسية المقبلتين في روسيا، وهما استحقاقان يقبل عليهما يلتسن ومعسكره بتخوف وبتوجس بالغين، اذ ليس في سجل الرجل وبطانته، وفي تدهور شعبيته وشعبية أي مرشح يزكيه، ما يدعو الى الاطمئنان.

وانطلاقاً من ذلك، توالت التفسيرات، فذهب البعض الى ان الرئيس الروسي قد يستغل تلك المواجهة ليعلن حال الطوارئ، مستبقاً بذلك المسار الانتخابي المزمع من أجل إلغائه وتفاديه. يحدوه في ذلك ما هو معلوم عنه من تمسك مرضي بكرسي السلطة وتجنب الملاحقات القاضية بتهم الفساد وخلافه مما يخافه، وهي ملاحقات

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

قد تطوله وتطول محيطه بعد تنحيه عن منصبه وتحوله الى مواطن عادي. ثم ان ذلك الاجتهاد تغير فحواه خلال الآونة الأخيرة وأدخل عليه تعديل مفاده ان الحرب القوقازية الجارية حالياً قد تكون فرصة لإسباغ المصداقية على رئيس الحكومة الجديد، فلاديمير بوتين، مرشح يلتسن للرئاسيات المقبلة، وهو الرجل الذي جيء به من الصفوف الخلفية، عديم الصيت بين الناس، قليل التجربة محدود الاشعاع. وتقول آخر استطلاعات الرأي ان شعبية بوتين قد قفزت خلال الآونة الأخيرة من ٢ إلى ٧ في المئة، وانها قد تكون مرشحة الى تحسن مضطرد، بسبب ما أبداه من حزم في مواجهة المشكلة

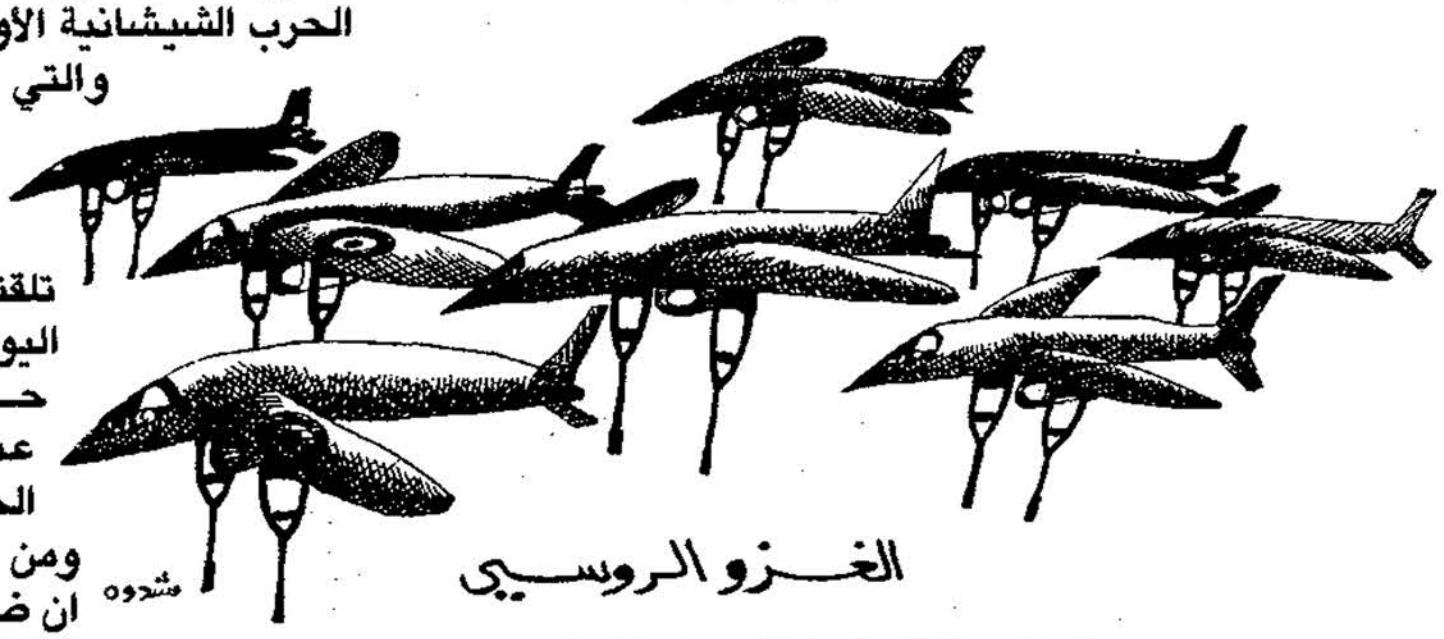

الغزو الروسي

مشدوه

الداغستانية، فالشيشانية، وبسبب ذلك الاجماع على خيار العنف في التعاطي مع الوضع في القوقاز، والذي يبدو انه يخترق كل مكونات التشكيلة السياسية الروسية من دون تمييز، ناهيك بالرأي العام. وهذا ما بات يعبر عن نفسه باكثر المواقف عنصرية تجاه سكان جنوب الفيديرالية الروسية، كما تدل على ذلك موجة الملاحقات الشرسة التي استهدفت من كان منهم في موسكو، عقب التفجيرات الأخيرة، وهو ما لم يتخلف عنه حتى رئيس بلدية العاصمة الروسية يوري لوجكوف الذي يطرح نفسه بديلاً ليبيرالياً (لا شيوعياً ولا قومياً) ليلتسن.

ومهما كانت المناورات والاستراتيجيات الفردية التي تحف بالحرب الشيشانية الجارية حالياً، والتي هي من صلب سلوكات و«شيم» الطبقة السياسية الروسية، فإن في ذلك الاجماع حول المواجهة الأخيرة، ما من شأنه ان يمنحها بعض دلالة قد تتخطى الاعيب الساسة لتعبر عن منحى قد يكون أعم وأعمق، ومتعدد الأوجه.

فمما لا شك فيه ان الحرب الجارية في الشيشان تلابسها من الجانب الروسي نوازع ثأرية غالبة تجاه حالة الهوان التي بلغتها القوة الروسية، سواء بسبب الهزيمة العسكرية التي منيت بها اثناء الحرب الشيشانية الأولى (١٩٩٤ - ١٩٩٦) والتي أفضت الى ما يشبه استقلال تلك الجمهورية، أو بفعل الإهانة التي تلقتها في اثناء الحرب اليوغوسلافية الأخيرة، حيث توقف دورها عند مواكبة تلك الحرب ديبلوماسياً، ومن موقع ثانوي، بعد ان ضن عليها حلف الناتو بأدنى دور ذي بال.

ولعل في ذلك ما يفسر، من ناحية، اصرار موسكو على امتداد المواجهة الى الشيشان، وهي التي تمكنت من اخراج المقاتلين الاسلاميين من داغستان وكان يمكنها ان تكتفي بذلك، وكأنها تحاول تدارك الانتكاسة التي لحقت بها قبل خمس سنوات. وإصرارها، من ناحية اخرى، على اجراء تلك المقارنة الجريئة بين ما ترتكبه هي في الشيشان وبين ما سبق لحلف الناتو ان فعله في كوسوفو، وذلك سواء من حيث التقنيات القتالية

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

المعتمدة (أولوية القصف الجوي المركز مع تجنب التدخل البري قدر الامكان) أو من حيث الهدف المنشود، ممثلاً في القضاء على طرف توجه اليه تهم الارهاب والاجرام، مع محاولة التأكيد بأن داغستان أو الشيشان انما هما كوسوفو روسيا. وذلك المنحى الثاري تتالف حوله أوساط داخل روسيا متعددة، سواء من الطبقة السياسية أو من المؤسسة العسكرية أو من رأي عام يبقى على الرغم من مصاعبه المعاشية العديدة، متسماً بالشوفينية وبالحنين الى ماضي العظمة الامبراطورية.

ثم ان «محاربة الارهاب» أو الزعم بذلك، هو ما قد يكون آخر مدخل لروسيا لتكون في عداد الدول ذات الشأن والمصادقية، أو في الحلم بموقع الند والمسؤول بينها، بعد ان فشلت في تحقيق ذلك بالوسائل الأخرى: سواء تمثلت في النجاح في الأخذ باقتصاد السوق وفي إرسائه، أو في العجز عن التوصل الى اقامة نظام تعددي ديموقراطي يعتد به. وبعد ان بدأ ابتزازها للعالم الغربي بمثل تلك المثل والأهداف يستنفد أغراضه وما عاد وسيلة لنيل الدعم، المالي وسواه، بشكل آلي. أي ان موسكو ربما كانت، من خلال حرب الشيشان، بصدد العمل على استرجاع شيء من مكانتها لدى الغرب بإعلان التحاقها بمعسكر المناضلين ضد «الإرهاب الأصولي» وتلك المهمة التي تعتبرها الولايات المتحدة من بين أهم ما هو مطروع عليها أداؤه عالمياً، في هذا الطور من فترة ما بعد الحرب الباردة. وذلك بدوره ما يمكنه ان يكون محل قدر من الاجماع الواسع، وان ضمنياً داخل روسيا، تلك التي تبقى قطاعات عريضة منها حريصة على الدعم الغربي بقطع النظر عما بينها من خلافات أو عداوات داخلية.

غير ان الكلفة الانسانية لكل ذلك باهظة، على جمهورية الشيشان، لاجئين ودماراً وتقتيلاً عشوائياً ينال من المدنيين اساساً... ولكن من تراه يعبأ؟

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية